على ضفاف بردى

مرحباً يا شباب . . وفتح شرطى (الجمرك) باب السيارة وصعد إلينا متهللا ، وأعاد التحية مشفوعة بجمله: الله يعطيكم العافية يا إخوان .. فكنت كمن صحا من نوم . هل تحققت آمال الصبا ؟ . وهل نحن على أبواب دمشق ؟ ما أغرب الأمانى ، وأمانى الطفولة على الأخص كنا على مقعد الدرس ، نحدث النفس بجولات وسياحات فى البلاد العربية ، فإذا مر فى دروس « الجغرافيا » ذكر دمشق ، عاصمة الوليد ، ومدينة الذكريات والمفاخر الاسلامية ، صفق الفؤاد طرباً وداعبت الأمانى نفوسنا ، وكل منا يحدث نفسه بزيارتها متى أنهى تعليمه . . ويحدثنا المعلم عن تاريخ وجمال دمشق ونحن نصغى إليه بشوق واهتمام فالحديث عن دمشق حبيب إلى كل قلب .

أما الآن ، وفى هذه اللحظة فما هى إلا « حذفة عصا » كما يقول أهل البادية . . حتى نكون فى قلب الشام .

وفارقنا جمرك « أبى الشامات » على عجل يستخفنا الشوق الجم ، ويدفعنا الحنين إلى المدينة الخالدة ورؤاها السحرية ، وانطلقت سيارتنا تطوى الطريق الطويل حتى دخلنا غوطة دمشق التى طالما تغنى بها الشعراء ، فحنت علينا أغصان الزيتون ، وظللتنا أشجار الحور والصفصاف ، وأنعشنا نسيم الغوطة المعطر بأريج الأزهار والرياحين .. وقد داعبت شمس الأصيل صفحات الجداول الصافية .. وما أجمل الأصيل بين تلك البساتين الظليلة ، فلقد أذكرتنى قول شوقى :

دخلتك والأصيل له ائتلاق
ووجهك ضاحك القسمات طلق

لقد دخلنا دمشق كما دخلها شوقى ، فرأينا الأطيار تناجى الأزهار ، والأنهار تتدفق تحت ظلال الأشجار والفلاح المرح يرسل اللحن الشجى « بالعتابا والموال » ، والفلاحات وقد لبسن ثياباً لها لون البرتقال ، فبدت جميلة فى الخضرة الزاهية حولها ، وهن يتخطرن بخفر ورشاقة تحت ظل الشجر ، حول يانع الزهر ودانى الثمر ..

وما هذه العروش المتباعدة بين الحقول ؟ إنها عروش « النواطير » حواش الكروم ، فما أسعدهم على عروشهم ، وما أبدع أصواتهم وهم يرددون الأغانى القروية الجميلة .

فى ساحة المرجة بدمشق

ألقيت نظرة إلى رفاق الرحلة فإذا بأعينهم تتطلع إلى ما حولهم بإعجاب وافتتان ، وسيارتنا تمر بالضواحى . هذه «دوما» بلد العنب « الدومانى » ، وتلك « داريا » بلد التفاح فإذا سمعت البائع الدمشقى يقول « ديرانى ياتفاح » فاشتر منه فإنه التفاح المفضل : ومررنا بقرى كثيرة تناثرت على ضفاف الأنهار . حتى دخلنا المدينة ، وأول ما لاح لأعيننا ولفت أنظارنا « حافلة كهربائية » خضراء اللون تتهادى بحملها من الناس بطرابيشهم الحمراء وأرديتهم المزركشة قافلين إلى قراهم بعد انتهاء أعمالهم فى المدينة .

ووقفت السيارة أمام مبنى أنزلت أحمالها فيه ، وتفرق الجمع إلى الفنادق ، ومضيت وصديق إلى فندق قريب ، وقف صاحبه ببابه يرحب بالنزلاء « أهلين وسهلين » فهو

لا يكتفى بأهلا وسهلا واحدة ، بل إن كلمات الترحيب تفيض على لسانه كلما رأى ضيفاً مقبلا ، وحسن المعاملة طبع متأصل فى نفوس أهل الشام .

أضفى الليل رداءه على المدينة، وبى وبصاحبى من تعب السفر ما يشغلنا عن الخروج ، ولكن هل نستطيع ونحن فى دمشق ولأول ليلة أن ننزوى فى الفندق إلى الصباح ؟ لا . . إذن غير بدلة السفر أيها الصديق . واتبعنى .. ولكن إلى أين ؟ .. إلى بردى، فعلى ضفاف بردى تطيب النزهـــة ويحلو السمر .. وجلسنا إلى بائع « التوت » نسامره ونأكل من بضاعته الشهية حتى داعب النوم الأجفان فرجعنا إلى فندقنا .

وفى الصباح الباكر تنوعت الزيارات فبعد أن شاهدنا « الجامع الأموى » وعمارته ، وقد بلغت من الروعة حداً كبيراً ، وقبر النبى « يحيى » عليه السلام ، ويقع فى جانب منه ، والأحواض التى لا ينقطع جريانها متعددة فى هـذا المسجد العظيم ، خرجنا لزيارة قبر البطل الفاتح صلاح الدين الأيوبى ، ولا يبعد كثيراً عن الجامع ، ثم خرجنا إلى أسواق دمشق نتمتع النظر بما يمتاز به الدمشقيون من ذوق حسن فى عرض بضائعهم وتنميقها ، وركبنا عربة طافت بنا أحياء دمشق القديمة النظيفة ، فالنظافة فن يحسنه كل دمشقى .

وأقلتنا فى اليوم التالى سيارة إلى جبل المهاجرين ، ومنه يبدو منظر دمشق الرائع، بمناظرها وقبابها وعماراتها الفخمة ، غارقة فى لجة من الخضرة الزاهية .

وزرنا فى يوم آخر « الربوة » ولا أحدثك عن جمالها وسحر مناظرها ، فما شهد امرؤ « الربوة » إلا وأحب أن يزورها مراراً وتكراراً ، ومن يشهد الخلائق يوم الجمعة وقد تفيأت ظلال أشجارها على ضفة النهر الهادىء يأخذه العجب لكثرتهم وتآلفهم ، فالكل فى أنس وبهجة وصفاء ..

ويطول البحث لو أنى حدثتك عن جولات كثيرة فى مصائف الشام الهادئة .. وعن نهر دمر ، وعين بقين ، والعين الخضرة ، وعين الفيجة — التى يشرب منها جميع سكان دمشق ، فى كل شارع حنفية « فيجة » — وبلودان والزبدانى .. .. مصائف تنسيك حرارة الصيف ، وتبعث فى جسمك القوة والنشاط .

ولا ينسى زائر دمشق نزهات المساء فى شارع بغداد ، وفى طريق الصالحية ، يسير بهما الساعات الطوال ولا يشعر بالتعب لفرط ما هو فيه من بهجة وسرور ، فرحم الله شوقى حيث يقول :

آمنت بالله واستثنيت جنته
دمشق روح وجنات وريحان

الكويت

محمد الفوزان

المهاتما

قطعة من نسيج قطن خام ... خشن فوق هيكل من عظام
ثم رأس ، رأس السبرمان ... موجوداً كما صوروه فى الأوهام
أذن قد أعارها الفيل إيا ... ه وأنف من الأنوف الضخام
وعيون كأن خلف زجاج ... نافذات ولا تنفوذ السهام
وثنايا من المشيب تهتم ... ن تريك الشباب بالابتسام
قام من بينها لسان ذليق ... غير مسترسل ولا تمتام
ولعمرى لولا الأديم لقلنا ... هيكل عاش منذ ألفى عام!

هذه الصورة التى تملأ الكو ... ن ضجيجاً محاطة بزحام
هزت الهند بالمحيط بهملا ... يا وما بينها من الأقوام
وحدت حولها الملايين ممن ... خلقوا وسط بؤرة الانقسام
وهم الرمل عدة وانحلالا ... إنهياراً إن ديس بالأقدام
يتحدى القوى الكبيرة بالرو ... ح فيعنو لأمره كل هام
بسلاح من التقشف والز ... هد ويرمى قنابلا من صيام

خالد الفرج